

الترجمة والثقافة - نحو كونية ثقافية-

د.فيدوح ياسمين

أستاذة محاضرة كلية الآداب

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

تاريخ النشر: 01/ اوت / 2018	تاريخ القبول: 19/ ماي 2018	تاريخ الارسال: 11 ماي 2018
الملخص: تتضمن الترجمة في الألفية الثالثة بقوة في حقل الدراسات المعرفية نظرا لرغبة الأمم في التقارب الثقافي، ولعل دعامة "حوار الحضارات" هي إحدى الممارسات المهمة لتفعيل أشكال التواصل بين بني البشر، وليس من الصعب تحقيق ذلك ما دامت الترجمة الآلية اللسانية حاضرة دوما لبناء الوعي المعرفي ودلالاته المتنوعة. وأن هذا الأمر لم يعد فيه اختيار في ثقافة العصر، بل أصبح من الضرورة المنهجية الداعية إلى تثاقف الأفكار، ما دامت هذه الأفكار قد خلقت بدافع التواصل، وكونها نظاماً من العلامات التواصلية. ولكن كيف يتحدد هذا التواصل بواسطة الترجمة؟ أو بالأحرى كيف يمكن للترجمة أن تكون مفتاحاً للتواصل.		
الكلمات المفتاحية: الترجمة، الثقافة، التواصل، اللغة، التفاعل، النص		
Résumé : La traduction, au troisième millénaire, occupait une position privilégiée dans le domaine des études cognitives dans sa dimension communicative, vu le désir urgent des nations pour la convergence des cultures. Voir aussi que le pilier du «dialogue des civilisations» est l'une des pratiques importantes pour activer les formes de communication, Il n'est pas difficile d'y parvenir tant que la traduction contribue à la construction de la conscience cognitive et à ses diverses significations et ses implications dans les âmes des destinataires, quels qu'ils soient. Il ne s'agit plus d'un choix actuellement, mais c'est devenu une nécessité méthodologique pour le brainstorming d'idées tant que ces idées ont été créées par la communication, et sont comme un système de signes communicatifs. Mais comment cette communication est-elle déterminée par la traduction? Ou plutôt comment la traduction peut-elle être la clé de la communication?		
Mots-clés: traduction, culture, communication, langage, interaction, texte		

مدخل:

تحظى الترجمة في الألفية الثالثة بمكانة متميزة في حقل الدراسات المعرفية في بعدها التواصلية، نظرا للرغبة الملحة بين الأمم في تقارب الثقافات، ولعل دعامة "حوار الحضارات" هي إحدى الممارسات المهمة لتفعيل أشكال التواصل، وليس من الصعب تحقيق ذلك ما دامت الترجمة تُسهم في بناء الوعي المعرفي ودلالاته المتنوعة والتداعيات في نفوس المتلقين أيا كان نوعهم. وأن هذا الأمر لم يعد فيه اختيار في ثقافة العصر، بل أصبح من الضرورة المنهجية الداعية إلى تثاقف الأفكار، ما دامت هذه الأفكار قد خلقت بدافع التواصل، وكونها نظاماً من العلامات التواصلية. ولكن كيف يتحدد هذا التواصل بواسطة الترجمة؟ أو بالأحرى كيف يمكن للترجمة أن تكون مفتاحا للتواصل؟ ثم كيف تكون بلاغة الألفاظ وسيلة للتواصل؟ وهل ترجمة نص من النصوص يمكنه أن يقوم بفعل التواصل مع الآخر؟ وأي نوع من التواصل تقوم به هذه اللغة أو تلك؟ وما نتيجة الدور الذي تؤديه الترجمة رغبة منها في تحقيق التواصل؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الملحة على أهمية الترجمة في النسق المعرفي والثقافي على السواء.

لقد أخذت عملية الاتصال شكلا مميّزا في الألفية الثالثة، تقوم بالأساس على العلاقة البناءة والمثمرة في تلاقي الأفكار والمعارف والثقافات فيما بين الأمم، كل ذلك من أجل اكتساب المعرفة بوصفها معلما إنسانيا شاملا، ينبغي للبشرية كافة الإحاطة بها وإدراك كنهها، انطلاقا من الفكرة الشائعة في الفلسفة من أن المعرفة هي عبارة عن العلم بحقائق الموجودات حسب الطاقة البشرية. ومن ثم، فإن طاقة أي إنسان غير محدودة في تقبل المعرفة والوقوف على حدود وجودها أينما كانت، وبأية لغة كانت، ما دامت وسائل الاتصال ميسرة، وفي متناول أبسط إنسان في هذا العصر، وتنوع هذه الوسائل عنده بحسب ما أُوتِيَ من طاقة وإمكانات.

إن من بين العوامل المشجعة على تحقيق هذا التواصل هي الرغبة في الانتفاع من الأجناس المعرفية التي كانت، ومحاولة تلمّس حقيقتها بشتى اللغات، تبعا للأسس التي ترتكز على خاصية تعزيز أي حوار إنساني قائم على الوعي الحضاري والمتسم بدعائم مدّ الجسور من خلال وسائل عديدة، لعل من أهمها التواصل التجاري، والسياسي، والثقافي، عبر القارات وما تؤديه من دور في تمكين الترجمة من ربط العلاقات بين الثقافات؛ "لأن الترجمة كما يقول "جون روني لادميرال" عبور بين ثقافات، أو هو تواصل ثقافي؛ ذلك أن اللغة متضامنة مع سياق ثقافي يحتم إضافة الأفق الخارج لساني إلى نظرية الترجمة، والترجمة إذاً ليست للغة ولكن للكلام".¹

¹Jean rené Ladmiral: traduire : théorèmes pour la traduction ; Payot ; Paris 1979 p13.

<http://ofouq.com/today/modules> وينظر أيضا، جمال حضري: العولة القسرية للقيم. الرابط:

إننا حين ننظر إلى الترجمة بوصفها جسرا مهما في ربط التواصل بين ثقافات الأمم؛ فلأننا نعدّها . أيضا . الوسيلة التي تُسهّم في تطور المعارف، وإعادة تأهيلها وتوجيهها ضمن إطار تنامي عملية التأثير والاعتراف بالآخر.

ويحاول المنظرون للممارسة الترجّمية الاهتمام بالاتصال الثقافي ضمن إطاره الوظيفي في الحياة المعرفية، الناتجة عن التجارب الإنسانية، وأشكالها، وتطوراتها؛ الأمر الذي يجعل حركة تنامي التطور في الاتجاه السليم من خلال العلاقات المتبادلة بين الثقافات التي تدعم المفاهيم، والأفكار، والتصورات المعرفية، في سبيل تنامي الوعي المعرفي. وإذا كنا نعتبر الترجمة شرطا فاعلا في تطور التصوّر الذهني للبشرية ضمن الحركة الديناميكية المتبادلة بين الثقافات فلا ينبغي أن نقرّ بالارتباط المفرط بالآخر، وإنما صفة الليونة مع تطابق مقوماتنا بثقافة الآخر تعدّ مرتكزا أساسا، يأخذ في الحسبان الحيطة من التأثير المطلق المتباين مع ثقافة الذات، والإفادة من الثقافة المنقولة إلينا، بخاصة الثقافة ذات الحس السليم التي من شأنها أن تنقل المعرفة الوظيفية بالمواضعة²؛ أي بالتقبل الوضعي لواقعنا الاجتماعي حتى تكون العلاقة قائمة على التبادل، وليس على التبعية والارتباط المغلق. وهكذا، تعد عملية التواصل / التلقي جسرا من خلال التفاعل بين لغة النص المنقول منه إلى لغة النص المنقول إليه؛ أي بين النص الأصلي وتعدد قراءاته في لغات مختلفة؛ لذلك كان التطوّر المعرفي رهينَ التواصل الثقافي، نظرا لطبيعة الاستعمالات المختلفة للغات عبر مسار تطور الحضارات، ولن يكون ذلك كذلك إلا بتفعيل الترجمة التي يتم من خلالها نقل تساؤلات النص المصدر . في مراميه وأهدافه . إلى الإفادة من هذه التساؤلات في ثقافة ولغة نص الهدف.

ومن هنا، تكمن أهمية التفاعل بين اللغتين، أو الثقافتين، وهو ما أطلق عليه "ياوس" الجسر التأويلي، بينما هو عند "آيزر تفاعل القارئ مع النص، والمفهوم ما "يفتحان آفاقا جديدة أمام نظرية الترجمة، ويجعلها تسير اكتشافات النظريات المعرفية الأخرى. وهكذا لم تعد الترجمة تعني مجرد نقل نص أصلي من لغة إلى لغة أخرى، بل يمكن للمترجم أن يستفيد من استراتيجيات القراءة والتأويل التي يقترحها ياوس وإيزر، مثلا، حيث يصبح المترجم مثل متلقي ياوس وقارئ إيزر، قارئاً دينامياً، له دور إيجابي يأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين الماضي والحاضر أو بين النص الأصلي وقراءاته المتعددة، ومكوّنات النص الثابتة والمتغيرة، معبّرا عن موقفه من منظوره التاريخي الخاص. وإذا كان المفهوم التقليدي للترجمة هو محاكاة النص الأصلي أو نقله إلى لغة ثانية، فإن ذلك يوحي بنوع من الجمود وفي هذا السياق يقول جون جونستون (John Johnston) في مقاله "الترجمة صورة زائفة": "إن المفهوم التقليدي للترجمة بصفتها محاكاة لنص أصلي أو نقله إلى لغة ثانية يبرهن ليس على أنه غير

² المواضعة: هي اتفاق بين جماعة على تداول شيء ما أو لغة ما، بوصفها لغة وظيفية. ويستنتج دليل أصحاب المواضعة، من كون التواضع على لغة ما يحتاج إلى الإيماءة، والإشارة، والحواس.

كاف في التطبيق فحسب، بل أيضا على أنه يقوم على نظرة جامدة ومغالطة للغة ³؛ لأن الترجمة في حد ذاتها هي عملية تواصلية بين الذات والآخر لتمكين مقاربة حوار الحضارات، وكذلك حتى يستفيد متلقي النص الهدف من تجارب روح نص المصدر، وكذا ما وصلت إليه ثقافة النص الأول. ومن ثم، تكون عملية التواصل هذه بين الثقافتين هي عملية تفاعلية بين طرفين كل منهما يكمل الآخر. إن فكرة التواصل هي بالدرجة الأولى وعي بالذات قبل أن تكون وعيا بالآخر، "وعى بالاختلاف والمغايرة، وعى بأخرية يستعصي على الذات أن تبلغها دون وساطة، وهذا الوعي الآخر بدوره . الذي ينطوي على وعى مماثل بالذات . يقف عاجزا عن التعرف على الآخر، أو التعرف على الذات في الآخر، إلا عبر تلك الوساطة بين هذين الوعيين..وهي وساطة لا توحّد فيما بينهما، بل تجعلهما قادرين على الدخول في تجربة مشتركة، أو على الانخراط في ضرب من التفاعل الخلاّق، دون أن يفقد أيّ منهما هويته الذاتية".⁴

والاتصال بالآخر هو اتصال لتعزيز مكانة الذات عبر واسطة الترجمة التواصلية التي من شأنها أن تفتن إلى معنى الاختلاف والمغايرة والدخول في تجربة احترام الرأي الآخر، ومنها يتشكل التطور المعرفي، من حيث إن الاستنتاج من التجربة يتوقف على مدى ارتباطك بالآخر وإلى ما وقف عليه من إجراءات وأحكام معرفية، وعندئذ تتأسس معالم اليقينيّات والثقة في النفس في النص الهدف، وهذا شأن الترابط بين المعارف والتأثير فيما بينها؛ لتحقيق هذا التواصل الذي لم يعد مقتصرًا في نظر إدوارد هول Edward T. Hall بين مخاطب ومخاطب في حالة عادية، بل انتقل إلى تواصل بين الثقافات؛ أي بين منظومة من القيم والعلاقات السلوكية، والمكانية، والزمانية، بمنظومة أخرى تخضع لظروف وملابسات ثقافية أخرى. وهذا ما جعل المترجم الفرنسي لكتاب "اللغة الصامتة" يصرح قائلا: "عنوان الكتاب لا يلخص فقط مضمون الكتاب، ولكن يتناول أيضا أحد التعارضات الكبرى للثقافات. فلا يقتصر الأمر على من يتكلم، وإنما على ذلك العالم من السلوكيات التي لم تُستكشف ولم تُدرس، وبالتالي ما زالت مجهولة".⁵

الترجمة و المعرفة : إن إسهام الترجمة في إنتاج المعرفة جزء لا يتجزأ من الإسهامات العلمية الأخرى والاشتراك معها في الموضوع المتداول، والزيادة من شمولية المعرفة العلمية الصائبة، فكيف يمكن طرح العلاقة بين الترجمة والمميزات المعرفية المحلية؟ ثم كيف تؤثر الترجمة في سمات النص الهدف؟ وكيف تسهم في تجديد فكر الذات؟

³ الجيلالي الكدية: الترجمة بين التأويل والتلقي، ضمن كتاب الترجمة والتأويل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب، ط 1، 1995، ص 57.

ينظر أيضا، John Johnston, «Translation as Simulacrum» in Rethinking Translation, ed. by Venuti (Routledge, London and N.Y., 1992), p. 43.

⁴ يوسف سلامة: ما الترجمة؟ الترجمة بين النقل والتأويل، مجلة الآداب، بيروت، العدد 6/5، عام 1999، ص 42.

⁵ Edward T. Hall: Le langage silencieux, page 12

لعل الإجابة الكافية، الشافية، عن هذه الأسئلة تكمن في رسم الهدف بوصفه أحد أبرز الخصائص والشروط الضرورية للإسهام الفعلي في تطور معرفة الذات، ويستدعي هذا انتقاءً في عملية اختيار النص المصدر وفق طموحات المترجم النبيلة التي تنعكس بدورها على ثقافته بالإيجاب، وليس من منظور إجراءات استنساخ النص المصدر حرفياً بلغة نص الهدف .

ولعل في إعادة إنتاج النص الهدف من النص المصدر ما يعكس قدرة المترجم على استيعاب الفكرة المراد توصيلها إلى المتلقي التي تضاهي الفكرة التي انطلق منها النص المصدر، وهذا ما يجعل الترجمة في مسعى الانبعاث، والبناء، والتجديد، وذلك بفعل نقل العلوم التي من شأنها أن تسهم في زرع الثقة في المترجم، وبث روح المبادرة في اتخاذ موقف ما يتلاءم وطاقاته الثقافية المحلية لدفع حركة الإبداع؛ ولذا فإن "المطلوب هو إعمال الجهد في عمل يساهم في نهضة العلوم جميعاً. وأن الذي نراه بهذا الخصوص، هو أن الترجمة مشروع متكامل أولاً، وخطة عمل ثانياً، وتزامن مع إنتاج العلم والمعرفة ثالثاً، وانفتاح على الآخر وتفاعله معه روحاً وثقافة رابعاً. وإنها إن لم تكن كذلك فلن تؤدي الغرض المطلوب منها حق الأداء"⁶. ومن هذا المنطلق، أيضاً، فإن الترجمة لا تعني قيام نظرية معرفية تكون بديلة لجميع المعارف، وإنما يعني الإفادة من واقع دراسات النظريات المعرفية، وما وصلت إليه في مجال التغير والإضافة؛ لتأكيد صلاحية المعرفة المفيدة.

إن حرصنا الشديد على تبني إسهام الترجمة في بناء المعرفة، وفق سياق تطور المعرفة العلمية وما يرتبط بها، يعتمد على القدرة الفائقة في الرغبة في احتواء الخصوصية العلمية. وقد يكون من البواعث المحفزة على ربط الصلة الوثيقة بين مباحث الترجمة ومباحث المعرفة هو بناء صرح واقعية المعرفة الذاتية الكسبية من الآخر، والتي تعتبر إضافة ضرورية لإنتاج الذات، بفضل إسهام الترجمة في إضاءة وتعويض ما نقص، ويتضح هذا "من أن الترجمة ليست مجرد نشاط لغوي، بل هي فعل ثقافي يقوم على إعادة تأهيل الثقافة الإنسانية وإعادة إنتاجها على نحو واعٍ.. إنها ليست حرفة إجرائية فحسب، وإنما هي موقف معرفي للعقل يمنحها بعداً معرفياً لا ينفصل عن بعدها الإجرائي أو بعدها النقدي، فالترجمة بما هي إنتاج معرفة متجددة بالنص، هي نقد بالضرورة؛ إذ النقد هو السبيل إلى إنتاج المعرفة، وهكذا يكون البعد المعرفي متصلاً بثقافة تُحسّن الاختيار؛ لأنها تقف على مكونات النصوص الأجنبية وعلى مرجعياتها، فتتمكن من الحكم على قابلية هذه النصوص للإفادة منها، وتقييم حصيلتها في إتاحة فرصة التفاعل الإيجابي بين الأنا والآخر."⁷

ولقد طرحت الترجمة، وبصورة أكثر جدية، مساندتها إلى نمو المعرفة، وإلى ضوابط التفكير السليم للثقافات القومية. ومن ثم، أصبحت مورد استفادة واعتماد. ولذلك تلقى الترجمة في الفترة

⁶ منذر عياشي: الترجمة لغة متعددة، ضمن كتاب، الترجمة وتفاعل الثقافات، حلقة بحثية، ص 1003.

⁷ ثايرديب: محنة الترجمة في الثقافة العربية، مجلة الآداب، ع 6/5، ص 83.

الأخيرة رواجاً أوسع، حتى أنها تكاد تكون الاتجاه الغالب، ومتطلباً حتمياً لتقييم استدلالات ثقافتنا من حيث كونها قيمةً في نمو العلوم، وخدمةً لها. وبهذا يتضح الأثر العيني في السمات المعرفية. ومن نافلة القول، إن طبيعة الترجمة في وظيفتها أصبحت تدرك جيداً أن كل عمل مترجم هو منجز جديد بإضاءات جديدة، على نحو ما فعله Ezra Pound عندما دافع عن ترجمة Homage to Sextus Propertius فقال: "انحصرت مهمتي في إحياء رجل ميت، أي في تقديم شخصية حية، وذلك من خلال تشبيهه إعادة إنسان ميت مرة أخرى إلى الحياة، وفي هذا تركيز على النص الهدف الذي يتجدد بقراءة من لغة أخرى لنص لشاعرٍ. مثلاً. ميت في لغة النص المصدر، وفي هذا يتوافق رأي "باوند Pound" حول مهمة المترجم مع وجهة نظر [والتر بنجامين Walter Benjamin] الذي يستخدم أيضاً تشبيه الترجمة بالحياة بعد الموت، وذلك في مقدمته الشهيرة للترجمة الألمانية لكتاب بودلير [صور في حياة الباريسيين 1923]. ولقد اكتشف من جديد منظرو الترجمة في الثمانينيات مثال بنجامين، وأصبح واحداً من أهم النصوص عن نظرية ترجمة ما بعد الحداثة.⁸

وإلى مثل هذا الأسلوب تكون السمة البارزة للترجمة، في دفع المعرفة إلى النمو، هي إظهار النص المصدر وإحيائه بحيث يولد منه موجود آخر، في لغة النص الهدف، ويؤثر في دوافع الثقافة القومية، ويفيد خصائصها، وغالباً ما يكون المترجم وسيلة مهمة توظف لتؤدي دور إحياء نص ما في لغة الهدف إلى لغة المصدر من منظور قصدي معين يتعلق بالمترجم، أو بالمؤسسة الثقافية أو العلمية التي تنسب إلى مصلحة المترجم، سواء أكان هذا التغيير نابعا من إرادة النص/الأصل، عندما يتقصّد المترجم في انتقائه، وتكون فيه ميزة التأثير نابعة لإرادة المترجم، أو أن يكون التغيير نابعا من الترجمة "بالطبع/السّجّية" والتي تتحقق بأشكال مختلفة، وتكون مصادفة لحاجة الثقافة القومية، وبحسب مقتضى طبيعتها ومطابقتها للواقع اليقيني. وفي كلتا الحالتين: [المترجم بالقصد، والمترجم بالمصادفة] تأتي الترجمة مسخرة للنهوض بهذه الثقافة القومية، وتتجلى من خلالها مميزات فائدة المعرفة بما تتلاءم مع الذات؛ لأن حاجة هذه الذات متعلقة باختيارها وسائل النمو بالنتيجة المطلوبة من الاتصال بالآخر، ولن يكون ذلك إلا عبر جسر الترجمة التي تشكل المحور الداعم لتطور العلوم والمعارف في الثقافة القومية.

وهكذا كلما كانت النتيجة المحصلة من النص المصدر، وكلما عمت الفائدة، وكلما كان هذا المحصول ناجزاً، وتاماً، كلما أدت الترجمة أسى ما عندها من خصائص وظيفية، "وإذا كانت الترجمة جزءاً من العمل العملي لأنها وسيط بين العلوم، وجزءاً من المشروع الحضاري لأنها وسيط بين الحضارات، فمن البديهي أن نقول إن الترجمة لا تزدهر إلا من خلال عمل علمي يقوم من ورائه مشروع حضاري.⁹ ولربما يعتبر عالمنا العربي من أكثر دول العالم شحاً في مجال تمويل الترجمة بهذا

⁸ ينظر، سوزان باسنييت: من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة ترجمة. فؤاد عبد المطلب، ص 50.

⁹ منذر عياشي: الترجمة لغة متعددة، ضمن كتاب، الترجمة وتفاعل الثقافات، حلقة بحثية، ص 1001 .

المنظور؛ الأمر الذي أبعد البحث العلمي في الجامعات العربية عن الإنجاز والإبداع، ومواكبة العلوم العصرية السائدة في العالم المتطور، وعلى هذا النحو يفترض أن تكون لغتنا القومية . المُستَهْدَفَةُ . أكثر حرصا على الإفادة من اللغات العالمية حتى نجعل منها أكثر تقبلا، وانفتاحا، ومرونة، وفي مستوى ما تواجهه من صدمات مفتعلة من الآخر. "وهنا، إذا أردنا أن نتكلم عن أول المعوقات التي تقف سدا منيعا أمام الترجمة [في ثقافتنا] فيمكننا أن نقول: إن الأمة التي دمرت مكوناتها الحضارية لا تستطيع أن تنجز علما، ولا ترجمة تكون وسيطا بين العلوم والحضارات، وإنه ليقال أيضا: إن الإحساس بالدونية يسود الأمم التي تتخلف عن ركب الحضارة، وإن هذا الإحساس ليعم حتى يصيب تطلعاتها؛ وإذ ذاك تصاب الأمة بالإحباط وتجهض مشاريعها العلمية"¹⁰.

إن تواصل لغتنا القومية باللغة المصدر لا يمكن أن يتم من دون تخطي حاجز الاعتزاز بالذات؛ لأن ظاهرة الاعتزاز بالذات تؤدي إلى إقصاء الآخر وتغييبه، وفي هذا تغييب لنقل التجارب المتنوعة المستمدة من تنشيط جهاز الترجمة في إجراءاتها الوظيفية، والتي من شأنها أن تضيف إلى اللغة القومية لبنة مما توصلت إليه اللغة المنقول منها بصورة انتقائية، وبما يخدم مصالح الذات في جميع مراميها الفكرية والثقافية لاختراق حواجز القطيعة المعرفية؛ "والترجمة بهذا المعنى وسيلة لوعي الفارق بين الثقافتين والإلغاء الثقافي. ففي حين يعني الثقافتين الإنصات المتبادل بين الثقافتين والاعتراف باختلافهما، يُفضي الإلغاء إلى الاستعلاء والنزعة المركزية"¹¹.

وليس بالضرورة أن تكون الترجمة "هو أنا"، أو "أنا أنت"، أو بتحويل الآخر ووضع في صورة الذات، أو تلبس الذات لبوس الآخر، وإنما الترجمة التي نقصدها، والمتماشية مع طموحات رغباتنا، هي تلك العلاقة التي تجمع بين هذين الضميرين في مستوى تفعيل التبادل في المعارف، والتي تجمعها علاقة دياليكتيكية، تكون فيها صورة التكافؤ اللغوي ممكنة، وفي مثل هذه الحال تؤدي الترجمة في نظر [بول ريكور] "إلى توسيع أفق اللغة الخاصة، بل إلى اكتشاف تلك اللغة نفسها"¹²؛ لأن المعلومات الواردة عبر جسر الترجمة غالبا ما تأخذ طابع الصهر والإذابة في نتاج المعرفة المحلية؛ لذلك من "الخطأ الأساس للمترجم [كما يرى، بنيامين] هو أن يحافظ على الوضع الذي يجد عليه لغته بدلا من أن يسمح للغته أن تتأثر بشدة باللغة الأجنبية، فينبغي عليه أن يوسع ويعمق لغته على طريق اللغة الأجنبية"¹³؛ لذا علينا ألا ننظر إلى الترجمة على أنها مسالمة لكافة مؤهلات التلقي، بل أن ننظر إليها بوصفها مسهمة في عملية الكشف والإبداع والنمو.

¹⁰ المرجع السابق، ص 1001 .

¹¹ رشيد برهون: درجة الوعي في الترجمة، ص 32 .

¹² La paradigme de la traduction , op, cit,p.14.

¹³ منى إبراهيم: الخفي شديد الظهور . قراءة ما بعد كولونيالية لترجمة (كمال أبو ديب) لاستشراف إدوارد سعيد، الترجمة وتفاعل الثقافات . حلقة بحثية . ص 1023 .

وكما أغنى تراثنا ثقافة الآخر من خلال بلورة هذا التراث في السياق الذي يحتاج إليه الغرب، والإفادة منه بصورة تنمي قدراتهم الإبداعية، كذلك الشأن بالنسبة إلى تفاعلنا اليوم . مع لغات الآخر التي من شأنها أن تدعم حركتنا الفكرية من خلال إتقان مهارة الترجمة، وتسخيرها بما يتماشى وطموحاتنا الوطنية. وأمام الإسهام الفعلي لدور الترجمة في التطور العلمي وإنتاج المعرفة تكمن المزاوجة الخلاقة لدفع حركة الإبداع من المنظور العقلاني. ويتعاظم تأثيرها عندما تستجيب طوعية لمستجدات التغيرات الحاصلة في تكنولوجيا الاتصالات التي من شأنها أن تدعم :

1. الرؤية الاستراتيجية.
 2. الرؤية الاستراتيجية / الاستنباطية.
 3. القدرة على التحليل.
 4. تعزيز الميول المعرفية .
 5. الرغبة في الاطلاع على الرأي الآخر ، واستثمار قدراته بدافع تقويم الذات، وتحديد علل التأخر.
 6. الحاجة إلى تطوير معارف "اللغة الهدف"، والدفع بسبل إمكان التقدم العلمي.
- ومن البين أن مثل هذا الأسلوب، وعلى هذا النحو، تضيف الترجمة إلى لغتنا القومية مكتسبات منهجية، ولغوية، ومعلوماتية، فتطراً بعض التبدلات، والتحويلات، على وظيفة هذه اللغة بما ينسجم مع متطلبات العصر، وهذا دأب كل لغة تسعى إلى أن تواكب التطور الحضاري.
- وفي ضوء الاعتراف بدور الترجمة في تطور النظريات المعرفية الحديثة القومية، أو الوطنية، فإنه يتعين علينا أن نتدارك الوضع بإعطاء الأهمية لمكانة الترجمة في واقعنا، " فقد أمكن الآن طرح جميع أنواع الأسئلة التي كانت تبدو سابقاً غير ذات أهمية: لماذا تقوم بعض الثقافات بالترجمة أكثر وبعضها أقل؟ وما نوع النصوص التي تُترجم؟ وما هي مكانة تلك النصوص في نظام لغة الهدف؟ وكيف تُقارن مكانة النصوص في نظام لغة المصدر؟ وماذا نعرف عن تقاليد الترجمة ومعاييرها في لحظات معينة؟، وكيف نُقوِّم الترجمة كقوة مُبتكرة؟ وما هي العلاقات في التاريخ الأدبي بين نشاط الترجمة المُكثَّف وإنتاج النصوص التي تُعد جزءاً من الأدب المُعترف به؟ وما هو تصور المترجمين لأعمالهم؟ وكيف يتم التعبير عن تلك الصور مجازاً؟. إن هذه الأسئلة وتساؤلات أخرى لا تُحصى تشهد تقدماً عظيماً في فهم الترجمة [بوصفها تعد] أكثر من نشاط ثانوي وهامشي، بل استطاعت الترجمة أن تصبح قوة أولية مؤثرة ضمن التاريخ الأدبي.¹⁴

والواقع أن ما تعكسه هذه الأسئلة يشكل المقوم الأساس لفعل الترجمة في إجراءات التواصل والذي يتخذ من فعل التلقي موضوعاً مستجداً له للبحث والكشف، بخاصة ونحن في عصر كُشِفَتْ

¹⁴ سوزان باسنيت : من الأدب المقارن إلى دراسات الترجمة ترجمة. فؤاد عبد المطلب، ص 52 .

فيه الترجمة من خلال التعامل "الرقيي" أن الناس يجهلون بعضهم ببعض، وأن التواصل الثقافي المعرفي يكاد ينحصر في الأعمال المنتقاة، ولحسابات معينة، ولظروف معينة، وهو ما يتعارض مع طموح شمولية هذه المعرفة.

والترجمة وحدها هي التي تمدنا بربط التواصل الحضاري، وتميز ثقافة هذه الأمة عن تلك، وتطور هذه المعرفة عن الأخرى، كل ذلك بفضل شيوع الترجمة التواصلية، كونها شرطا أساسا، وفعلا مساعدا لكل إبداع، أو فعلا مساعدا لكل من يتوسل ضروب التحصيل المعرفي المميز من الفكر النمطي في تكوينه الحضاري.

ومن هذا المنظور لا يمكن تصور الشخص مبدعا، أو قادرا على الإبداع إلا بعد إلمامه بما توصل إليه البحث العلمي، والنفوذ إلى سبر ما توصل إليه العقل البشري في مجال تخصصه وتحديد نسقه المميز، والغاية التي وصل إليها، كل ذلك بغرض التشخيص والانطلاق من حيث انتهى الآخر، لتأكيد الذات.

تعد الترجمة أحد أهم أركان وسائط التواصل الحضاري¹⁵، وعلى المتلقي اختيار ما يلائمه من معروض الفكر التواصلية من الحضارات، والأمم، واللغات المختلفة على النحو الذي نهجه مفكرنا القدامى في تأسيس الحضارة الإسلامية التي خضعت لعامل الاختيار المدروس، "فمنذ فجر الإسلام . مثلاً وضع المسلمون هذا المنهاج في التواصل الحضاري، حيث أخذوا من تجارب وقواعد وتراثيب الحضارات الأخرى (المشترك الإنساني العام) وأضافوه إلى (الخصوصيات الإسلامية) التي تميّز بها منهاج الرسالة الإسلامية الخاتمة، فاختاروا (التواصل الحضاري) من موقع الراشد المستقل، رافضين التبعية، والتشبه، والتقليد، وكذلك العزلة، والانغلاق. صنعوا ذلك عندما أخذوا عن الرومان (تدوين الدواوين) ولم يأخذوا (القانون الروماني) استغناءً بالشريعة الإسلامية المتميزة.. وعندما أخذوا عن الهند (الفلك والحساب) لم يأخذوا فلسفة الهند، استغناءً ب (التوحيد) فلسفة الإسلام. إن حسن الاختيار يكون بتنمية وإنضاج الفكر العام، وتطوير الحس النقدي عند المواطنين، بعيداً عن أساليب الوصاية والقمع والإجبار.

¹⁵ حدد الدارسون آليات التواصل الحضاري بين الجماعات البشرية بأربعة وسائط: وهي: التجارة، والحرب، والحمل، والتعرض والتعريض) ينظر، مصطفى سوييف: التواصل الحضاري . حقيقة تاريخية . مجلة الهلال، ديسمبر 1996، ص 22. إن مفهوم التجارة والحرب واضحان بلا شك.

أمّا مفهوم الحمل فالمقصود به هو: تحرّك الأفراد بين الكيانات الحضارية حاملين معهم بعض منتجات حضارتهم (المادية والمعنوية) إلى حيث يقصدون، ومن ثم يعودون من المناطق الحضارية التي زاروها، وقد جلبوا معهم منتجات طريفة يقدمونها إلى مجتمعاتهم، على نحو ما هو معروف عندنا في الجزائر بتجار الشنطة. بينما المقصود من مفهوم التعرض والتعريض: الإشارة إلى فئة واسعة من نشاط أجهزة الإعلام في الدولة الحديثة، وكذلك المعارض، والمؤتمرات، والمهرجانات، وزيارات الفرق الفنية، والعلماء والأكاديميين، كما يتضمن هذا المفهوم أنشطة الترجمة بجميع أشكالها ومستوياتها. ينظر، رفعت المحمد: الحضارة الإنسانية بين التواصل والصراع، مجلة النبأ، عدد 62، 2001، ص 60.

وعندئذٍ نستطيع حصر المشكلة التي يمكن أن تواجهها في عملية التواصل الحضاري في طريقة هذا التواصل، وليست في مبدئه، وبالتالي فإن الجهود الأساسية يجب أن تنصبَّ على اختيار الأسلوب الأنسب لتحقيق هذا التواصل دون أن نرفضه نهائياً؛¹⁶ لأن الترجمة وحدها هي التي تمدنا برابط التواصل الحضاري، وتميَّز ثقافة هذه الأمة عن تلك، وتطور هذه المعرفة عن الأخرى بفضل شيوخ الترجمة التواصلية.

وإذا كانت التكنولوجيا في ميدان المعرفة قد قربت عوامل البعد في جميع مراميها، المادية، والمعنوية، والمكانية، والزمانية، فإنه قَمِينٌ بنا أن نستثمر إجراءات فعل الترجمة، واتخاذ اللازم الموضوعي والعلمي في سبيل تقريب الصلة بمعرفة الآخر، وتفعيل التجانس بين ثقافتنا وثقافة الأمم الأخرى.

ولا أحد ينكر أن سبيل تحقيق القوة، وتمكين الرقي نابعان من استيعاب ثقافة الآخر. ولعل خير مثال لتوضيح مكانة ربط التواصل الثقافي بين الأمم والثقافات هو ما قامت به الثقافة العربية الإسلامية التي قبلت مبدأ التوافق مع الآخر في مهد نشأتها من خلال ترجمة وشروح كتب اليونان، بخاصة الدور الذي قام به قدمائنا من أمثال الفارابي وابن رشد بنقل الفكر الأرسطي، واليوناني بوجه عام، وتوطينه في الثقافة العربية الإسلامية بما لا يدع مجالاً للشك في تأصيل هذا النقل. ولعل الدور نفسه قام به الفرنسيون. مؤخراً. في نقلهم للفكر الألماني، وغيره، مثل نقل، وتأصيل أعمال نيتشه، وهيغل، وماركس، وفرويد، وهايدجر، وغيرهم كثير.

ولعل تاريخنا العربي الإسلامي كفيل بممدِّ الجسور بين الثقافات، بدءاً من الفتوحات الإسلامية التي عززت الظروف الحضارية الجديدة بربط الصلة مع ثقافة الآخرين مثل الثقافة الفارسية، والرومانية، والهندية، وغيرها، كل ذلك بفضل دور الترجمة التي كانت المحك الأساس لتقريب الصلة بين الثقافة الفاتحة والثقافة المفتوحة، وقد انعكس ذلك في تأسيس "بيت الحكمة" للخليفة أبي جعفر المنصور التي أصبحت مقراً للترجمة في عهد الخليفة المأمون. أضف إلى ذلك ما وقع من تحرك لافِت في عصر النهضة، وفي ظلِّ وَقْع الصدمة مع الغرب، فما كان من التفاعل بين الثقافتين، العربية والغربية، إلا أن وطدتا علاقة قوية رغبة في تقارب التكافؤ بين الحدود الثقافية، وقد كانت نَوَاتُهُ الأولى في ظل العهد العثماني، ثم تلتها تجربة الترجمة في بداية القرن العشرين، حين بدأت إرهاباتها الأولى بلجنة التأليف والترجمة والنشر، التي تأسست بالقاهرة عام 1914، ومحاولة تشجيع الترجمة؛ من أجل ربط حركة التواصل الثقافي عبر آليات الحوار المتبادل.

وتكمن قيمة التواصل في جلب ثقافة، أو أدب، أو معرفة، خارج البيئة اللغوية، أو الثقافة المحلية، وتقريب بيئة أخرى إلى البيئة المنقول إليها، وفي مثل هذه الحال لا يمكن أن يتجاوز أي نمط

¹⁶ ينظر، رفعت المحمد: الحضارة الإنسانية بين التواصل والصراع، مجلة النبأ، عدد 62، 2001، ص 61.

معرفي . بما في ذلك العمل الأدبي . حدوده إلا من خلال الترجمة "التي ينتقل من خلالها من لغته الأصلية [لغة المصدر] إلى لغة أجنبية [لغة الهدف]، بعد أن يخضع لمخاض إبداعي جديد، لا يقل صعوبة وإشكالية عن المخاض الإبداعي الأول. ثم يجد العمل الأدبي الذي هاجر من بيئته الأصلية إلى بيئة ثقافية واجتماعية غريبة نفسه في مواجهة متلقين لم يكتب من أجلهم في الأصل... فبوساطة الترجمة يختار العمل الأدبي حدوده اللغوية إلى لغات وثقافات أخرى وإلى متلقين جدد... ولذلك يمكن القول: إن المترجمين والنقاد هم صنّاع استقبال الآداب الأجنبية.¹⁷

إن وسائل الاتصال التي تبلورت معالمها في الألفية الثالثة متعددة ومنوعة، لعل أهمها ما يصل عن طريق الخبر، أو ما يظهر منها في العيان، أو ما يصل إليه العقل بالاستدلال عن طريق التأثير والتأثير، أو ما يكون عبر الوسائل التي تقوم بدورها على إثراء أية ثقافة، وقد تكون الترجمة إحدى وسائل الاتصال التي تشمل كل هذه المعالم، كما تكون مرتكزا من مرتكزات آلية التلقي المعرفي، وعاملاً مهماً لدفع إنتاج المعرفة إلى سبل الانفتاح على الآخر.

أضف إلى ذلك أن حرية التعبير تقتضي الرغبة في التعرف إلى الآخر من حيث كونه تجسيدا لمعالم ثقافي معين، يعكس رؤيةً محددةً من هذا العالم؛ الأمر الذي يمكّن الذات من تشخيص تجربتها الثقافية للحصول على التواصل المتكافئ ودعم الشخصية والثقافة المحلية، ومن ثم تبلور فكرة إعادة النظر في تعزيز مكانة الترجمة وارتباطها بالحاجة الماسة لمعرفة الآخر وظروف توظيف قدراته بإمكانات قد تعكس تحقيق طموحاتنا من خلال : استثمار نتائج ما توصل إليه الآخر. وربط التجربة العلمية المنقولة بالحاجة إلى اكتساب كل ما تحده وسائل الإنتاج المعرفي، بوصفه الأساس العلمي، الجوهري، لتطور المجتمع في كل ما يسعى إلى تحقيقه. الاهتمام بكيفية التواصل الثقافي على أن يكون التأثير في النوع، والشكل، والمستوى، والتوجه، وانعكاس ذلك كله على المصلحة الموضوعية لثقافة الذات.

¹⁷ عبده عبود: هجرة النصوص . دراسة في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1995، ص 33.